الجزيرة كانت «تبيض ذهبا»

دلما مركز تجاري خليجي تاريخي

تجارة اللؤلؤ انعشت الجزيرة واجتذبت السكان لعقود من الزمان

دبي - فريد وجدي:

■ كشفت دارسة تراثية قيمة للعملات الاثرية التي تم اكتشافها في جزيرة دلما، عن ان الجزيرة كانت مركزا خليجيا مهما لصيد وتجارة اللؤلؤ ومصدرا مهما من مصادر الدخل لامارة ابوظبي، كما اجتذبت هجرات بشرية بسبب الرواج التجاري الذي شهدته خلال عقود قديمة، حيث كانت الجزيرة خلال القرن التاسع عشر من اهم مراكز تجارة اللؤلؤ في الخليج العربي على الاطلاق.

وتوصل الاثاري فتحي محمد عبدالله، امين متحف دلما الى نتائج مهمة في الدراسة التي اجراها على العملات الاثرية التي تم اكتشافها في الجزيرة في فترات سابقة، وتم حفظها في المتحف، حيث تلقي الدراسة الضوء على الحياة السياسية والتجارية والاقتصادية والاجتماعية التي عاشتها الجزيرة خلال القرنين الماضيين في ظل نفس حقائق الحياة التي عاشتها الحضارات المجاورة لموقع الجزيرة سواء الى الشرق و الغرب او الشمال والجنوب.

ويرى الباحث في بداية دراسته ان العملات الاثرية التي تم العثور عليها في دلما تلقي الضوء على تاريخ العلاقة العربية الافريقية، موضحا ان التراث ليس مجموعة من التحف والقطع الاثارية او مجموعة من عادات وتقاليد و«متاع» الاجداد نحتفظ بها في المتاحف للتباهي والتفاخر بها والتفرج عليها فقط، بل لا بد من بذل جهد فكري جديد يجعل من قراءة هذه الادوات التي تركها لنا الاجداد تربة تاريخية خصبة نسقيها ونرعاها ونغذيها ونضيف اليها لكي تكبر وتعيش وتثمر بما يوجب على الجيل الحاضر من شباب امتنا العربية ان يقرأ ويبحث بعمل وبصيرة كل ما يقع تحت بصره ويده من آثار وتراث اجدادنا ليكون لنا نورا وبرهانا على طريق المستقبل.

وضرب مثالا بالعثور على عملات بجزيرة دلما مكتوب عليها السلطان سعيد تظهر ان السلطان قام بتجربة فريدة، وهي انشاء دولة عربية افريقية وكانت هذه التجربة التي قام بها السلطان سعيد خير دليل على تلاحم الشعب العربي بالافريقي نتج عنه روابط حضارية وتاريخية وثقافية وروحية كان الدين الاسلامي المشعل الوحيد الذي مهد لهما الطريق القويم وعلى مدى عشر، انشئت المساجد في القرى الواقعة على طول الطرق التجارية الموصلة الى بحيرات تياسا وتنجانيقا حتى حدود الكونغو حتى لا تكاد تخلو قرية في قلب هذه المنطقة من مسجد للمسلمين. وقد كان من الصعب على السلطان سعيد الاحتفاظ بالدولة العربية الافريقية بشقيها الافريقي والاسيوي في غمار القرن التاسع عشر الذي شهد تفوق القوة الاوروبية العسكرية والصناعية، والذين اخذوا يتسللون الى داخل القارة تحت ستار التجارة وحركات الكشوف الجغرافية والحركات التبشيرية.

العملات الهندية من اين ؟

ويرى فتحي ان دراسة العملات المعدنية التي تم العثور عليها في جزيرة دلما اثناء التنقيب في الاماكن القريبة من العمارة التراثية في الجزيرة، تظهر ان العملات او النقود هي ما تم الاتفاق عليه بين الناس وقبلوه قبولا عاما اكثر من اي شيء كان، من غير اشتراط كونه من مادة معينة. ففي العصر الاول لم يكن الانسان بحاجة الى نقود لان جميع احتياجاته متوفرة امامه لا يمنعه منها احد ليبذل له مقابل. فالفرد كان يقوم شخصيا باشباع حاجاته عن طريق انتاج ما يلزمه ويحتاج اليه من الطعام واللباس والسكن. ولما كثر عدد الافراد وتزايدت احتياجات الفرق شعر الانسان بحاجة الى من يستطيع تلبية رغبته من الاحتياجات التي كثرت وتعددت وتنوعت. ولم يكن بوسعه اشباعها كلها بمفرده اما لعدم قدرته على ذلك او لعدم رغبته في انتاجها بنفسه فاندمج الفرد في الجماعات الضيقة وبدأت هذه الجماعة تتقاسم العمل فيما بينها وصار كل فرد عمل يختص به. فهذا مختص بتدبير شؤون الطعام وذاك مختص بتدبير شؤون اللباس واخر مختص بامور المأوى.

وبعد ان تعددت الجماعات وكثرت الاحتياجات وتزايدت المنتجات وذلك باستقرار الانسان وترك حياة التنقل واشتغاله بالزراعة، حيث ارتبط بالارض والخرط في سلك الجماعة عند ذلك صار الانسان يفكر في الاخذ والاعطاء وتبادل الحاجات. ويمكن ان يطلق على هذه المرحلة اسم مرحلة اقتصاد المبادلة او المقايضة.

ولما تلمس الانسان عيوب المقايضة ومشاكلها بدأ يفكر بضرورة اعتماد سلعة معينة لتكون وسيلته في التداول ومقياسا عاما لقيمة السلع والخدمات التي يحتاج الى مبادلتها، وبدأت مرحلة اقتصاد النقود السلعية وهو ما يسمى بنظام النقود السلعية. ومن هنا بدأت نشأة النقود نتيجة لظروف التقدم الاقتصادي واتساع نطاق التبادل.

ولم يكن لعرب الخليج - بعد ان سد البريطانيون امامهم سبل الكسب من تجارة البحر - الا ان يلجأوا الى البحر مرة اخرى ولو بصورة مختلفة. فقد قامت بريطانيا بضرب الاسطول العربي [illegible] وبمنع بناء السفن التجارية الكبيرة والقضاء على التجارة. لذا توجه عبر الخليج الى عمليات صيد اللؤلؤ اكثر من اي وقت مضى. حتى يمكن ان يطلق على هذا العصر - الذي امتد بين ضرب القواعد العربية العام ١٨٠٩ وحتى ثلاثينيات القرن التالي. حين بدأ البترول يلعب دورا مهما في اقتصاد الخليج العصر الذهبي للؤلؤ.

وكانت اغنى مغاصات اللؤلؤ في الخليج العربي تقع بين شبه جزيرة قطر وسواحل ابوظبي، وبالذات في «جزيرة دلما» في مياه ابوظبي، والتي بدأت عصرها الذهبي واصبحت منذ القرن التاسع عشر من اهم مراكز تجارة اللؤلؤ في عهد المرحوم المغفور له باذن الله الشيخ شخبوط بن ذياب، والذي تولى الحكم لامارة ابوظبي بالفترة من ١٧٩٣ الى ١٨١٦ ميلادية.

واستمرت كذلك اهمية جزيرة دلما كمصدر هام من مصادر الدخل في عهد المرحوم المغفور له باذن الله الشيخ زايد الكبير «١٨٥٥ الى ١٩١٦». والمرحوم المغفور له باذن الله الشيخ شخبوط بن سلطان الذين عين ممثلا له بجزيرة دلما والذي تولى الحكم «١٩٢٨ الى ١٩٦٦».

وبعد ان اصبحت جزيرة دلما من اهم مراكز التجارة للؤلؤ وتجمع سفن الصيادين كان من الطبيعي ان تتجه الانظار الى الجزيرة للنهل من خيراتها، واجتذبت الجزيرة جالية هندية، حيث سيطر التجار الهنود على التجارة خاصة تجارة اللؤلؤ الذي كان يصدر الى الهند وكان للهنود دور كبير ليس في اقراض الغواصين والتجارة فقط، بل والعمل بتلك التجارة. ونتيجة لذلك عظم حجم الدور الهندي في الاقتصاد نتيجة اقبالهم على التجارة بشتى انواعها.

زيادة المعاملات مع الهند

ونتيجة لزيادة حجم المعاملات التجارية بين الهند والخليج صار من الطبيعي ان فرضت العملة الهندية «الروبية» وجودها في ميدان المعاملات في الخليج. وقد قوى هذا الامر الوجود البريطاني في الخليج. وهو وجود اصله في الهند مما اوجد مناخا مناسبا للوجود الهندي في شتى مناطق الخليج. ووفرت [illegible] ذلك الوضع للتجار الهنود اصحاب رؤوس الاموال القادرين على القيام بهذه العملية، بالمساهمة في تمويل رحلات الغوص حيث كانوا هم بعد ذلك الذين يقومون بشراء اللؤلؤ وتسويقه، بالاضافة الى الاربح التي كانوا يحصلون عليها من الفوائد نتيجة عملية الاقراض حتى انهم اقرضوا بعض تجار اللؤلؤ العرب انفسهم.

وبحكم العلاقات التجارية ارتبطت معظم المناطق التجارية في الخليج العربي ومنها جزيرة دلما بالعملة الهندية والتي تسمى بالروبية بصورة غير رسمية منذ العام ١٨٣٥. وقد عثر في جزيرة دلما على عملات تعود الى العام ١٨٣٥، وهي عبارة عن عملات هندية عثر عليها بجوار المباني التراثية في الطبقات الاولى على عمق ٣٥ سنتيمترا وتظهر على هذه العملات صور لاباطرة انجليز واسماء الاباطرة. وتوجد كذلك قيمة العملة وتاريخ الضرب. هذا بالاضافة لصور لحيوانات ربما تمثل رموزا هندية. وهناك عملات هندية مختلفة التواريخ تم العثور عليها، وعثر بجوار هذه العملات الهندية على عملات محلية ضربت في منطقة الخليج العام ١٣١٥، ويكشف تعدد انواع العملات الاثرية التي عثر عليها بجزيرة دلما عن طبيعة النشاط الاقتصادي وحجم التجارة الدولية والمحلية وحجم المعاملات في السوقين المحلي والدولي. فالتجارة هي اكثر العوامل تأثيرا في العلاقات بين الشعوب بالعثور على عملات هندية بجزيرة دلما يؤكد على عمق التبادل التجاري بين الهند وجزيرة دلما. فالهنود يتاجرون في السلع والبضائع الهندية. ولازم بعضهم السفن العربية لتجارتهم واختار بعضهم الاقامة في بلاد العرب ومنهم التجار الهنود الذين كانوا يأتون من الهند في مواسم العرب واسواقهم.

وبذلك تكون دلما ساهمت تاريخيا في انعاش الاقتصاد سواء على المستوى المحلي او العالمي. وهي اليوم تتباهى بتاريخها العريق الذي يعود الى اكثر من ستة آلاف سنة.

انواع العملات

وشملت العملات الاثرية التي تحويها هذه العملات ان يكون منها بحثا موثقا عندما يقارن المعلومات التي يحصل عليها بما هو مذكور في المصادر التاريخية الاساسية وبما تجود به المكتشفات الاثرية من كتابات وادوات واوان وميدان اثرية. فلعملة اهمية كبرى في الكشف عن طبيعة النشاط الاقتصادي بجزيرة دلما كميناء بحري مهم ومركز نشط لصيد وتجار اللؤلؤ، والذي كان يمثل عصب اقتصاد اهالي منطقة الخليج منذ القدم. فكانت سفنهم تجوب مياه الخليج حتى المحيط الهندي والسواحل الشرقية لافريقيا حتى وصلت تجارتهم حدود البلاد الاوروبية.

وقد كان لاهل جزيرة دلما السبق في تجارة اللؤلؤ ونظرا لعدم وجود نقود في المنطقة في تلك الفترة اضطر السكان والتجار منهم بخاصة لاستخدام نقود مختلفة من المناطق المجاورة والمناطق التي اقاموا معها صلاتهم التجارية. فاستخدم التجار النقود العمانية المعروفة «بيزة برغش» وكذلك «بيزة فيصل بن تركي» وبعض العملات الفارسية المحلية، والتي عثر ايضا على عملات منها بجزيرة دلما. كما تم استخدام بعض العملات التي اصدرتها شركة الهند الشرقية بدءا من العام ١٧٩١ حتى العام ١٨٣٠ ميلادية.

تحول العملات

ومنذ العام ١٨٣٠ تم اعتماد الروبية الهندية واجزائها في الامارات كعملة رسمية حتى العام ١٩٤٧ والنقود الهندية التي عثر عليها بجزيرة دلما معظمها مصنوع من الفضة والبرونز. وتتراوح فترتها الزمنية ما بين العامين ١٨٣٥ و١٩٥٤. وتم العثور عليها في الاراضي القريبة من المباني التراثية وعلى عمق يتراوح ما بين ١٥ و٣٥ سنتيمترا من عمق الطبقة الاولى. وتحوي بيانات هذه العملات تاريخها والمكان الذي ضربت فيه وصور. نذكر منها على احد اوجه هذه العملات الهندية صورة لثلاثة اسود تعرف باسد اشوكا ويعود تاريخ ضرب هذه العملة الى العام ١٨٢٥. وفي الجانب الاخر لعملة تظهر قيمتها وهي واحد روبية وعرفت محلية بروبية «ام صلم».

[illegible] وأخرى تحمل صورة لادوارد السابع ويظهر في الصورة اصلع الرأس وكانت تسمى محليا «روبية ام صلعة» وعملة تحمل صورة لجورج الخامس ١٩١٧ وكانت تسمى محليا «روبية ام شعبة» وتم العثور ايضا على عملات تعود لجورج الخامس ١٩٢٨.

ويستنتج الباحث من المعلومات التي تحويها العملات وكتاباتها باللغة الانجليزية بانها عملات بريطانية تشهد على قيام بريطانيا بربط هذه المنطقة اقتصاديا بالهند، لا سيما مع توسع النشاط التجاري لابناء المنطقة مع الهند التي وقعت هي الاخرى تحت الانتداب البريطاني [illegible] الفترة، حيث كانت كل من دلما وابوظبي تمثلان منفذين طبيعيين استغلهما السكان انذاك للسفر للخارج. حيث كانت عائدات تجارة اللؤلؤ تؤلف في الماضي وسيلتهم الرئيسية لشراء حاجاتهم من الارز والسكر والبن والملابس وكانت الروبية الهندية هي الوسيلة المفضلة عند السكان كعملة تتداول اكثر من غيرها. واخيرا، بقي ان نعرف ان الكتب والمراجع التاريخية تؤكد ان بدء نشاط صيد اللؤلؤ في جزيرة دلما يعود الى عهد الشيخ شخبوط بن ذياب. حيث تحدثت الكتب عن الجزيرة وتاريخها المعروف في دنيا الغوص واللؤلؤ منذ العام ١٧٩٣.

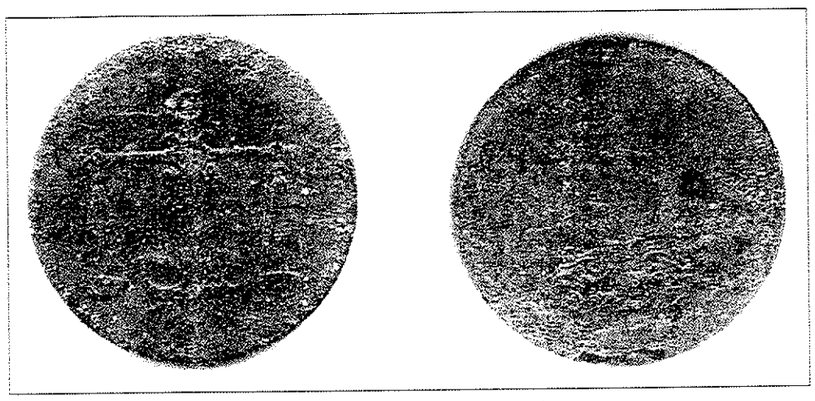

بيزة برغش تحمل تاريخ ١٢٩٩ هجرية (تصوير: ظهير حيدر)

تدار من خلال شركة الهند الشرقية وهي شركة بريطانية تم تأسيسها في الهند. فقد كان لا بد لبريطانيا من توسيع نشاط هذه الشركة لتشمل منطقة الخليج العربي.

وقد عزز ذلك ازدهار الحركة والنشاط البحري لابناء الامارات حيث توسع النشاط التجاري لابناء الامارات مع الهند. وكان تجار الامارات يجلبون البضاعة من موانىء الهند المعروفة آنذاك ومنها كراتشي وبومبي وكلكتا وزاد حجم التبادل التجاري مع ازدهار صناعة استخراج اللؤلؤ. فكان يصل عدد سفن الغوص بجزيرة دلما الى ١٠٠ سفينة آنذاك.

هذا بالاضافة الى باقي السفن من كافة انحاء الدولة، حيث كان يقوم تجار الامارات ببيع حصيلة هذه الصناعة في اسواق الهند ونتيجة لتزايد الصلات التجارية بين الامارات والهند اصبح تجار الامارات يتعاملون بالروبية الهندية وبخاصة في المحلات التجارية مما ساعد على انتشارها واستخدامها.

الروبية بديلا للذهب

كما ساعد على انتشار الروبية الهندية على انشاء فرع شركة الهند الشرقية في منطقة الخليج، حيث كان الفرع في البصرة بالعراق وتم نقله الى الكويت في العام ١٨٣٠. كما امتنع تجار الهند من دفع قيمة اللؤلؤ الذي كان يحمله تجار الامارات لبيعه في اسواق الهند بالذهب بعد ان سجل ارتفاعا في قيمته في فترة زمنية محددة. وحرص التجار الهنود على ادخاره وهذا الامر دفع تجار الامارات الى قبول الروبية الهندية كاداة تبادل تجاري مع تجار الهند. ومن حينها انتشرت الروبية الهندية في الامارات كاداة تبادل تجاري مع تجار الهند حيث تم تداولها خلال الفترة من ١٨٣٠ الى ١٩٤٧.

بيزة برغش

وتم العثور على عملات متنوعة تدلل على اهمية دلما الاقتصادية ومن هذه العملات ما كان يطلق عليها محليا «بيزة برغش» والمكتوب على وجهها «سعيد بن برغش حفظه الله» وعليها تاريخ ١٢٩٩ هجرية وتظهر على وجهها الاخر صورة لميزان كتبت تحت صورة الميزان كلمة «العدل» وهناك عملة اخرى عثر عليها بجزيرة دلما على الوجه صورة [illegible]